وجاء الكلام على طريقة الحكاية عن حالهم والملقى إليه الكلام هو النبي A والمؤمنون . وفيه تعريض بتذكير الكفار بحال حلول المصائب بهم لعلهم يتذكرون فيعدوا عدة الخوف من حلول النقمة التي أنذرهم بها في قوله (فانتظروا) كما في الحديث " تعرف إلى ا في الرخاء يعرفك في الشدة " .

فالمراد ب (الناس) الناس المعهودون المتحدث عنهم بقرينة السياق على الوجهين المتقدمين في قوله تعالى (وإذا مس الإنسان الضر دعانا لجنبه) .

وقد قيل : إن الآية تشير إلى ما أصاب قريشا من القحط سبع سنين بدعاء النبي A ثم كشف ا عنهم القحط وأنزل عليهم المطر فلما حيوا طفقوا يطعنون في آيات ا ويعادون رسول ا A ويكيدون له . والقحط الذي أصاب قريشا هو المذكور في سورة الدخان . وقد أنذروا فيها بالبطشة الكبرى . وقال ابن عباس : هي بطشة يوم بدر . فتكون هذه الآية قد نزلت بعد انقراض السبع السنين التي هي كسني يوسف وبعد أن حيوا فتكون قد نزلت بعد سنة عشر من البعثة أو سنة إحدى عشرة .

والإذاقة : مستعملة في مطلق الإدراك استعارة أو مجازا كما تقدم في قوله (ليذوق وبال أمره) في سورة العقود .

والرحمة : هنا مطلقة على أثر الرحمة وهو النعمة والنفع كقوله (وينشر رحمته) .

والضراء : الضر . والمس : مستعمل في الإصابة . والمعنى إذا نالت الناس نعمة بعد الضر كالمطر بعد القحط والأمن بعد الخوف والصحة بعد المرض .

و (إذا) في قوله (إذا لهم مكر) للمفاجأة وهي رابطة لجواب (إذا) الشرطية لوقوعه جملة اسمية وهي لا تصلح للاتصال بإذا الشرطية التي تلازمها الأفعال إن وقعت ظرفا ثم إن وقعت شرطا فلا تصلح لأن تكون جوابا لها فلذلك أدخل على جملة الجواب حرف (إذا) الفجائية لأن حرف المفاجأة يدل على البدار والإسراع بمضمون الجملة فيفيد مفاد فاء التعقيب التي يؤتى بها لربط جواب الشرط بشرطه فإذا جاء حرف المفاجأة أغنى عنها .

والمكر : حقيقته إخفاء الأضرار وإبرازه في صورة المسالمة وقد تقدم عند قوله تعالى (ومكروا ومكر ا) في سورة آل عمران .

و (في) من قوله (في آياتنا) للظرفية المجازية المراد منها الملابسة أي مكرهم المصاحب لآياتنا . ومعنى مكرهم في الآيات أنهم يمكرون مكرا يتعلق بها وذلك أنهم يوهمون أن آيات القرآن غير دالة على صدق الرسول ويزعمون أنه لو أنزلت عليه آية أخرى لآمنوا بها

وهم كاذبون في ذلك وإنما هم يكذبونه عنادا ومكابرة وحفاظا على دينهم في الشرك .

ولما كان الكلام متضمنا التعريض بإنذارهم أمر الرسول أن يعظهم بأن ا أسرع مكرا أي منكم فجعل مكر ا بهم أسرع من مكرمهم بآيات ا .

ودل اسم التفضيل على أن مكر الكافرين سريع أيضا وذلك لما دل عليه حرف المفاجأة من المبادرة وهي إسراع . والمعنى : أن ا أعجل مكرا بكم منكم بمكركم بآيات ا .

وأسرع : مأخوذ من أسرع المزيد على غير قياس أو من سرع المجرد بناء على وجوده في الكلام فيما حكاه الفارسي .

وأطلق على تأجيل ا عذابهم اسم المكر على وجه الاستعارة التمثيلية لأن هيئة ذلك التأجيل في خفائه عنهم كهيئة فعل الماكر وحسنته المشاكلة كما تقدم في أية آل عمران .

وجملة (إن رسلنا يكتبون ما تمكرون) استئناف خطاب للمشركين مباشرة تهديدا من ا فلذلك فصلت على التي قبلها لاختلاف المخاطب . وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي A وأن مكرهم يتمشى عليه ولا يشعر به فأعلمهم ا بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك . والمقصود من هذا أن ذلك محصي معدود عليهم لا يهمل وهو إنذار بالعذاب عليه وهذا يستلزم علم ا تعالى بذلك .

وعبر بالمضارع في (يكتبون) و (يمكرون) للدلالة على التكرر أي تتكرر كتابتهم كلما يتكرر مكرهم فليس في قوله (ما تمكرون) التفات من الغيبة إلى الخطاب لاختلاف معادي الضميرين .

(يمكرون ما) يعقوب عن روح وقرأه . الخطاب بتاء (تمكرون ما) الجمهور وقرأه A E بياء الغائب والضمير ل (الناس) في قوله (وإذا أذقنا الناس رحمة) . وعلى هذه القراءة فالكلام موجه للنبي A